المفارقة في أدب نجيب محفوظ
" اللص والكلاب نموذجاً "

أ. ابتهال عبدالوهاب
مدير مؤسسة إبداع للتدريب والنشر والترجمة

تُعبر المفارقة عن العلاقات التي تبدو ظاهرياً في حالة من التناقض والتضاد في حين أن منطق الأشياء يقول إنها ينبغي أن تكون في حالة من التوافق والانسجام. إذن المفارقة تضاد بين الظاهر أوالسطحي، والمعنى العميق للأشياء، لهذا لجأ إليها الأدباء والكتاب على تعدد أقلامهم، وتنوع آليات إبداعاتهم مُعبرين عنها بأساليب تتضمن أحياناً نوعاً من التهكم والتورية والسخرية، الأمر الذي جعلني ألتفت إليها، وأتناولها بالتطبيق على واحدة من أشهر الروايات العربية، وهي رواية اللص والكلاب، لواحد من أشهر الروائيين العرب وهو " نجيب محفوظ، "فضلاً عن رغبتي في التعرف على مفهوم هذه التقنية، أو الأسلوب البلاغي والصفة الجمالية التي تضيفها المفارقة على العمل الأدبي، وبناءً على ذلك حددت إشكالية البحث والدراسة فيما يلي:

ماهية المفارقة، أشكالها، وأدوارها، وكيفية تمظهرها في الرواية:

بداية فإن المفارقة هي لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين هما صانع المفارقة وقارئها على نحو يقدم فيه صانع المفارقة النص بطريقة تستثير القارئ، وتدعوه إلى رفض معناه الحرفي، وذلك لصالح المعنى الخفي الذي غالباً ما يكون المعنى الضد، ولا يهدأ للقارئ بالاً إلا بعد أن يصل إلى المعنى الذي يرتضيه.

والمفارقة لغة اتصال سري بين كاتب النص وقارئه، وهي لعبة عقلية من أرقى أنواع النشاط العقلي، وأكثرها تعقيداً تُستخدم لقتل الاعتياد المفرط، وللقضاء على المظهر الزائف، وهي رفض للمعنى الحرفي للكلام لصالح المعنى الآخر، أو المعنى الضد، وتصدر عن ذهن متوقد، ووعي شديد للذات بما حولها، والمقصود منها هو عكس المعنى الحرفي بالمعنى العميق وليس السطحي الظاهر.

أشكال المفارقة:

تعددت أشكال المفارقة، وتنوعت، واختلفت دراسات الكتاب حولها فهناك المفارقة اللفظية، والمفارقة الدرامية، ومفارقة المواقف.

المفارقة اللفظية هي القاسم المشترك في معظم الكتابات، وهي شكل من أشكال القول يُساق فيه معنى ما في حين يُقصد فيه معنى آخر يُخالف المعنى السطحي.

دور المفارقة:

يتضح دور المفارقة وآلية عملها من خلال دور الشخصيات التي تُسهم في إنتاجها والمتمثلة في صانع المفارقة، وقارئها، وضحيتها، ولكل واحد من هؤلاء دور مركزي يُسهم في إقامة بناء المفارقة.

فصانع المفارقة وهو المؤلف دوره هو إيصال الضحية إلى قمة جهلها بالحقيقة، وخداعها بالمظهر، وعدم تركها إلا بعد أن تكون قد فقدت كل رؤية واضحة لديها، أي بعد الوقوع في فخ المفارقة.

دور القارئ:

عند وصول شفرة المفارقة إلى القارئ فإنه يبدأ بالبحث عن المفتاح السحري الذي يمكنه من تفكيكها، وفي هذه الحالة يقوم القارئ بدور مهم بقدر أهمية دور صانع المفارقة، لأنه إذا لم يتم تفسير رسالة المفارقة كما أراد لها الكاتب، فإنها تبقى أشبه بيد واحدة تصفق.

على القارئ أو المتلقي أن يكون على دراية تامة بأن العمل الأدبي بصفة عامة وأعمال المفارقة بصفة خاصة ليست محاكاة للواقع.

لابد أن يكون القارئ مُدرباً على قراءة النصوص الأدبية حتى يكون لديه حس بشفافية اللغة.

دور الضحية:

للضحية دور مهم في إنجاح عملية أو لعبة المفارقة فمن دون الضحية لا تكون هناك مفارقة أصلاً، فدورها يختلف عن دور صانع المفارقة، وقارئها، فهو دور قدري لا إرادة للضحية فيه.

تمظهرت المفارقة في رواية اللص والكلاب، فإذا ذهبنا إلى عنوان رواية "اللص والكلاب"، نجده في حد ذاته عبارة عن مفارقة تخدم موضوع الرواية بغض النظر عن التفاصيل.

فمن خلاله نستنتج أن هناك لصاً، وأن هناك كلاباً، والصراع بينهما قائم، ومحتدم، وجلي.

إذا قمنا بتحليل عنوان الرواية، سنجد أنه يتألف من كلمتين: اللص والكلاب، وتجمعهما أداة ربط هي الواو، تدل على وجود علاقة بينهما، وهي أن اللص يحاول أن يتخلص من الكلاب حتى يصل إلى هدفه المنشود.

والكلاب بدورها وبحكم وظيفتها تتربص به، وتحاول الإمساك به، وإفساد مُخططه.

اللص جاء بصيغة المفرد، فهو غالباً شخصية سلبية عدائية ومنبوذة لا يحيا إلا على السطو والنهب، وهو أيضاً الشخص الخارج عن القانون.

الكلاب جاءت بصيغة الجمع فهي لفظ يستعمل في سياقات معينة للحط من قيمة وكرامة الشخص للتعبير عن الحقارة والدونية، وهي تستعمل في سياقات أخرى كرمز للوفاء وهي صديقة الإنسان، وتؤدي أدواراً عديدة، أبرزها الصداقة والحماية.

لجأ محفوظ إلى حيلة اختيار الأسماء التي تظهر مفارقات بالجملة، فسعيد الذي أنكرته ابنته لم يذق طعم السعادة قط.

خسر أربعًا من السنين الغالية قضاها في السجن، ونبوية زوجته تنازلت عن طهر الزوجة ووفائها، وأصبحت تلك المرأة النابتة من طين الخيانة.

أما نور التي تعيش في عتمة الملاهي والمراقص، واضطرتها الظروف للانزلاق إلى قاع المجتمع، لتجد نفسها بلا نصير في خضم الأمواج المعادية.

أما رؤوف علوان لم يرأف بجماهيره، وركب أول قارب نجاة يحمل مصالحه وطموحاته.

لعل نجيب محفوظ يريد من لعبة اختيار الأسماء أن يُظهر حجم المفارقة الدالة على انقلاب المبادئ والقيم في المجتمع، والتي هي نتاج طبيعي للمجتمعات المأزومة، وكأنه من خلالها يحاكم التغيرات الاجتماعية التي أحدثتها الهزات السياسية العميقة التي عصفت بالمجتمع.

مفارقة الانكسار:

جاءت تلك المفارقة من الفرق الشاسع بين التمني والواقع، أي بين الصورة التي كان يحلم بها للقاء ابنته وما وجده في الحقيقة من جحودها إياه، فقد كان يتوسم فيها طوق النجاة من الهزيمة، والطريق إلى نسيان الألم لقد كان سعيد مهران هو الضحية، ضحية دون ذنب، ضحية في مفارقة من صنع ابنته، أعز ما يملك في الحياة، مفارقة الخيانة.

نبوية عليش هي الزوجة وشريكة الحياة، ولكن هي أيضاً هي العشيقة المتآمرة الخائنة.

مفارقة الباب المفتوح:

كان سعيد مهران يبحث عن مأوى بعد أن خرج من السجن الصغير إلى السجن الكبير، وبعد أن أنكرته ابنته، فلجأ للشيخ يبحث لديه عن الراحة والدواء، فله في هذا البيت ذكريات جميلة مع أبيه.

قال سعيد مهران للشيخ: "لا تؤاخذني لا مكان لي في هذه الدنيا سوى بيتك"، ترك الشيخ رأسه تهوى في صدره.

وهو يقول أنت تقصد الجدران لا القلب، كان الشيخ يتكلم بلغة غير مفهومة كانت اللغة بمراوغتها بين الظاهر والباطن، وطبيعة انغلاقها هي سبب حرمان سعيد من الكلمة الطيبة التي كان يريد سماعها من الشيخ برغم كل كلام الشيخ الطيب، إلا أن سعيد مهران لم يستطع فهمه، فتحول باب الشيخ المفتوح إلى باب مغلق.

مفارقة المراوغة:

كانت علاقة سعيد مهران برؤوف علوان علاقة ذات خصوصية، علاقة قوية ومتينة، فكان رؤوف بالنسبة له هو الصديق المخلص والمعلم في الوقت نفسه الحقيقة إن رؤوف علوان مع مرور الوقت أثبت أنه شخص متسلق ووصولي، رؤوف علوان قد تغير ولم يبق منه إلا ظل صورته.

خاتمة:

أهم الأبعاد التي تُشير إليهاالرواية هي أن نجيب محفوظ يميل إلى الحديث عن الواقع الاجتماعي والسياسي لمصر بعد ثورة جمال عبدالناصر على النظام الملكي، ومنها التركيز على تلك المفارقات الاجتماعية والنفسية التي أفرزتها التجربة المصرية.

وأهم دلالة نستخلصها من الرواية هي أن نجيب محفوظ جعل من اللص والكلاب ذاكرة حية لرصد سلبيات الواقع المعيش، وقبل وضع النقطة في آخر هذه الدراسة أرى أن محفوظ هو رائد السهل الممتنع، فقد استطاع بكل اقتدار من خلال لصه أن يوجه نقداً لاذعاً لكلاب لم ترأف بحال شعوب أنهكتها الخيانة، والغدر، والانقلاب على المبادئ، حتى أصبح النص كومة ألغاز تُحلل المشهد، وتُشير إلى مواطن الخلل وتضع اليد على مكامن الوجع، ولقد قدم لنا نجيب محفوظ رواية واقعية مُثقلة بالنقد اللاذع للواقع المصري بعد الثورة، حيث الانتهازية، والمتاجرة بالشرف، وإكراه النفس على الدخول إلى مربع الإجرام من حيث لا تشعر، ولكن ما يُميز هذه الرواية هو أسلوب الكاتب الذي آثر فيه لغة البساطة، والوضوح، والوصف الدقيق، وقد نفض عن نفسه غبار المُحسنات البديعية المتكلفة، لأن لغة العصر ترفض هذا النمط، كما أنها تقترب من لغة الحياة اليومية عبر اعتماد الكاتب لغة واقعية حية لها علاقة بالشارع المصري ووعيه، من هنا نستطيع أن نقول إن نجيب محفوظ هو أول من أصَّل لتجربة جديدة تتداخل فيها اللغة الفصيحة بالعامية رغبة منه في كشف تفاصيل مكنونات المواطن المصري الذي طحنته الهموم، وأثقلت كاهله المصائب، كما تتميز لغة الرواية بتداخل جلي في خيوط السرد، والهدف من ذلك هو الإحاطة بهموم الشخصية من جوانبها كافة، كما نلمس اعتماد الكاتب لغة الوصف القصصي، واعتماد الحوار بنوعيه الديالوج والمونولوج وبذلك استطاع الكاتب أن يسلط الضوءعلى الكثير من المفاهيم المشوهة والحقائق المقلوبة، حيث الخلط بين مفهوم الأمانة والخيانة، والظالم والمظلوم، والوطنية والتنكر للوطن، في محاولة منه لإرجاع الأشياء لأصولها الحقيقية.

إن نجيب محفوظ في اللص والكلاب يبدو أكثر قرباً من الواقع اليومي للجماهير المقهورة والمغلوبة على أمرها. وهو هنا يتحرك بتلقائية ومرونة تسمح له بأن يتحرر من الطابع الفلسفي المجرد الذي نجده ماثلاً في بعض من رواياته الأخرى كأولاد حارتنا، أو قلب الليل، أو الشحاذ، أو الطريق.